العلاقة بين اللغة والثقافة

Devi Eka Diantika
Institut Agama Islam Sunan Giri Bojonegoro
e-mail: devieka628@gmail.com

المستخلص: *"اللغة من أعظم الآلات التي يستخدمها البشر فى تحقيق التعاون فيما بينهم، ووسيلة تعاونه فى حمل المعاني المختلفة التي يرغب فى إيصاله للغير. اللغة هي جزء من الثقافة، والثقافة تحدد هوية الشعوب. أي أن اللغة تعني هوية المجتمعات. اللغة هي وسيلة للتواصل بين أفراد المجتمع وإذا حرمت المجتمعات من اللغة فإنها تحرم من وسيلة التواصل والتعبير. فالمجتمعات تتواصل وتتفاهم عبر اللغة، لذلك لا يمكن أن توجد الشعوب بدون وجود اللغة. في وقتنا الراهن إذا أردنا أن نبني مجتمعاً فيجب العودة إلى تاريخ وثقافة ولغة ذلك المجتمع وإلا فإن ذلك المجتمع لن ينتمي إلى تلك الثقافة وذلك التاريخ. وتجمع الفرضية سابير–وهورف بين مبدأين هما: النسبية اللغوية والحتمية اللغوية، ولا تزعم نظرية النسبية اللغوية أن البناء اللغوي يحد من تفكير الناس وفهمهم للأشياء، ولكنها تزعم أن البناء اللغوي يؤثر فيما يفكر فيه الناس وما يفهمونه بشكل منظم."*

الكلمات الرئيسة: *اللغة، الثقافة*

المقدمة

إن أعظم اكتشاف عرفه الإنسان على مر العصور هو اللغة، فهي أبرز ما يميزه عن غيره من الحيوانات، ومن حسن الصيغ أن نعرف الإنسان بأنه الحيوان القادر عن الخلق البشري.[١] فاللغة قطعة من الحياة، نشأت فيها، وسارت معها، وغذت بغذائها، ونهضت بنهوضها، وركدت بركودها، وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالا رحبا نتصفح من خلاله الحضارات الإنسانية، ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تلعب اللغة دورا ذا أهمية أساسية باعتبارها من أقوى الروابط بين أعضاء ذلك المجتمع.[٢]

اللغة هي الوسيلة الرئيسية التي ندير بها حياتنا الاجتماعية، وعندما تستخدم اللغة فى سياقات التواصل تتعقد الصلة بينها وبين الثقافة فى نواح كثيرة ومتشابكة.[٣] واللغة لا تنحصر في مجال الكلام والتواصل فقط، فحين

[١] هادي نهر، *علم اللغة الاجتماعي عند العرب*، (الجامعة المستنصرية على طبعه، ١٩٨٨)، ص، ١٧.

[٢] نفس المرجع ، ص: ١٩.

[٣] كلير كرامش، *اللغة والثقافة*، ترجمة أحمد الشيمي، (

يتحدث المرء بلغة معينة فإن هذه اللغة تنطوي على ثقافة، تاريخ، وعي وهوية معينة. فالمجتمعات تعبر من خلال اللغة عن ثقافتها وعن تراثها وتاريخها، وفي وقتنا الحاضر إذا أردنا أن نبني مجتمعاً وفق ذهنية معنية فيجب أن تكون هناك لغة تعبر عن ذلك المجتمع وعن تلك الذهنية. فاللغة ظاهرة اجتماعية. وهي بوصفها هذا تؤلف موضوعا من موضوعات علم الاجتماع.[٤]

توجد علاقة وثيقة بين اللغة والثقافة، حيث أن لغة البشر وأساليبهم وطرق تفكيرهم تختلف تبعا لثقافاتهم. ويمكن تعريف الثقافة بأنها "تشمل على الفنون والمعتقدات والأعراف واللغة والتقاليد التي تميز شعب من الشعوب. وقد لاحظت العلاقة بين الثقافة واللغة في فترة تعود إلى الفترة الكلاسيكية، وربما قيل ذلك بوقت طويل. فالإغريق القدامي، على سبيل المثال، يميزون بين الشعوب المتحضرة وبالباروس "أولئك الذين يميلون إلى الثرثرة"، أي أولئك الذين يتكلمون لغات غير مفهومة. فنظرا لأن هناك مجموعات تتحدث لغات مختلفة، وغير مفهومة فقد يعتبر ذلك دليلا ملموسا على الاختلافات الثقافية أكثر من كونه من السمات الثقافية الأخرى الأقل وضوحا ويرى أنصار الحركة الرومانسية الألمان في القرن التاسع عشر مثل هوردر، وندت وهومبولت ، اللغة ليس فقط باعتبارها واحدة من بين العديد من السمات الثقافية، بل كوسيلة للتعبير المباشر عن الطابع الوطني للشعوب، ولكن مختزل إلى حد ما.[٥]

قد كان (سابير) اختصاصيا كبيرا في اللغات الأمريكية الهندية، وقد نشر مؤلفات هامة في علم اللغة، ووضع نظرية تحاول التدليل على أن نظرة الإنسان إلى العالم الخارجي ترتبط بلغته، وأصبحت آراء هورف حول الاعتماد المتبادل للغة والفكر بنظرية سابير–هورف *Sapir-Whorf hypothesis*.[٦]

مفهوم اللغة

لقد اختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، وليس هناك اتفاق شامل على مفهوم محدد للغة. ويرجع سبب كثرة التعريفات وتعددها إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم. وأوَّل من عرف باللغة أبو الفتح عثمان ابن جنّي في كتابه "الخصائص" وهذا التعريف للغة يبدو أكثر إحاطة من بعض التعريفات العصرية، بقول ابن جني

قطر، وزارة الثقافة والفننو والتراث، ٢٠١٠)، ص: ١٥

[٤] علي عبد الواحد وافي، *اللغة والمجتمع*، (القاهرة: مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٣)، ص: ٦

[٥] العديد من المؤلفين، *الموسوعة العربية العالمية*، (السعودية العربية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع: ١٩٩٩)، ص: ٣٩.

[٦] المرجع السابق، *اللغة والثقافة*، ص: ٢٧.

فى تعريفه للغة، إنَّ اللغة هي مجموعة من الأصوات يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم.[٧] وعرفها بعض اللغويين تعريفا شـاملا، اللغة عبارة عن نظام صـوتي يمتلك سـياقا اجتِماعيا وثقافيا له دلالاتُه ورموزه، وهو قابل للنمو والتطور، ويخضــع في ذلك للظروف التاريخية والحضــارية التي يمر بها المجتمع. وقدعرف تمام حســن فى كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" فاللغة هي منظمة عرفية للرموز إلى نشاط المجتمع.[٨]

اللغة من أعظم الآلات التي يســتخدمها البشــر فى تحقيق التعاون فيما بينهم،[٩] ووســيلة تعاونه فى حمل المعاني المختلفة التي يرغب فى إيصاله للغير. ونعلم أن اللغة ظاهرة فكرية عضوية خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية.لأن الإننسان وحده من بين مخلوقات الله هو الذي يستخدمها، أما أدواة الاتصال عند الحيوان فمختلفة عنها اختلافا نوعيا. ولأن الإنسان مهيئ عضويا ببيولوجيا للكلام، أن لديه قدرات عقلية ليس للحيوان منها نصيب.[١٠]

واللغة ليســت من الأمور التي يصــنعها فرد معين أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضــيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل للأفكار. واللغة كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد فى ابتاعه، ويتخذونه أساسا للتعبير عما يجول بخواطرهم، وفى تفاهمهم بعضهم مع بعض.[١١]

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضــارة الأمة، ونظمها، وعاداتها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وشــؤونها الاجتماعية العامة، وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث فى ناحية منهذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير. ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب. فكلما اتسعت حضارة الأمة، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها، ورقى تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسمت أساليبها، وتعدت فيها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضــع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة.[١٢]

---

[٧] ابن جني، *الخصائص*، (عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦)، ص: ١٥

[٨] تمام حسن، *اللغة العربية معناها ومبناها*، (المغرب، جمع الحقوق محفوظة، ١٩٩٤)، ص:٣٤.

[٩] محمد حسن عبد العزيز، *مدخل إلى اللغة*، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٨)، ص: ١٦

[١٠] المرجع السابق، *مدخل إلى اللغة* ، ص: ٨.

[١١] المرجع السابق، *اللغة والمجتمع*، ص: ٦

[١٢] المرجع السابق، *اللغة والمجتمع*، ص: ١٣.

مفهوم الثقافة

يعرف الثقافة فى لسان العرب المجلد العاشر: (يقال ثقف الشيئ وهو سرعة التعلم)، ويقول ابن دريد: (ثقفت الشيئ حذفته)، وفى حديث الهجرة: (غلام شاب لقن ثقف) رواه البخاري، أي ذو فطنة وذكاء والمراد أنه ثابت المعرفة بما يجتاج إليه. و يقول فريد وجدي فى دائرة معارف القرن العشـــرين/المجلد الثاني: (ثقف يثقف ثقافة: فطن وحذق، وثقف العلم فى أسرع مدة أي أسرع أخذه، وثقفه يثقفه ثقفا: غلبه فى الحذق، والتثقيف: الحاذق الفطن)، والقواميس الحديث تقول: (ثقف ثقافة: صـــار حاذقا خفيفا، وثقف الكلام فهمه بســـرعة). ويعرف الثقافة فى المعجم الوسيط أي أنها العلوم والمعارف والفنون التي يطلب فيها الحدق.[١٣]

فمفهوم (ثقافة) ثمرة من ثمار عصر النهضة، عندما شهدت أوروبا فى القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجليلة فى الفن وفى الأدب وفى الفكر. ومن الواجب أن نترجم هذه الظاهرة فى ضوء النفسية الأوروبية، وخصوصا فى ضوء النفسية الفرنسية، حتى نفهم لماذا اختبرت كلمة *Culture* المشتقة من الأصل اللاتينى*Culture* كما تطلق على صورة تفقت عنه أذهان المفكرين.

فالواقع أن الأوربي عامة والفرنسي خاصة هو (إنسان الأرض)، وإن الحضارة الأوربية هي (حضارة الزراعة)، وعليه فإن العمليات التي تستنتج من الأرض خبراتها كالحرث والبذر والحصاد، لها بالضرورة دور هام فى نفسية الإنسان الأوروبي، كما أن لها دورا هاما فى صياغة رموز حضارته، إذ أن الزراعة هي العملية التي تضم بين دفتيها جميع العمليات الســـابقة، فهي تحدد وتنظم إنتاج الأرض. فأصـــبحت *Culture* منذ ذلك الحين فكرة، ولكنها فكرة تجريبية، إنها شيئ (حاضر) دل على (وجوده) بواسطة التسمية.[١٤]

وكان من الطبيعي أن يظل تصور (الثقافة) على ماكان عليه فى عصر النهضة، أي أنها مجموع ثمرات الفكر فى ميادين الفن والفلســـفة والعلم والقانون وغير ذلك. ويعرف الثقافة عند مالك بن نبي في هذا الكتاب إنها مجموعة الصـفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصـبح لا شـعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.[١٥]

فى واقع الأمر تتسم الثقافة بتغاير الخواص فى أبعادها الاجتماعية والتاريخية والمتخيلة أيضا، فقد يكون لكل عضـــو من أعضـــاء لمجتمع خطاب معين، وســـيرة حياة مختلفة وخبرات حياتية مختلفة، وقد يختلف هؤلاء

[١٣] مالك بن بني، *مشكلة الثقافة*، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٠)، ص: ١٩

[١٤] المرجع السابق، *مشكلة الثقافة*، ص: ٢٤-٢٦

[١٥] المرجع السابق، *مشكلة الثقافة*، ص: ٢٨

الأعضاء فى السن والنوع والعرق، ويعتنقون آراء سياسية مختلفة. أكثر من ذلك نجد أن الثقافات تتغير مع الزمن، نرى ذلك فى الصعوبة التي يختبرها القراء المعاصرون عند قراءة قصيدة دكسون.

باختصار يمكن تعريف الثقافة على أنها نشاط مجموعة أعضاء فى مجتمع خطاب يشارك أعضاؤه فى مكان وتاريخ وتصورات اجتماعية مشتركة، حتى عندما يغادر هؤلاء الأعضاء مجتمعهم فإنهم يستعيدون نسق عام من معايير الإدراك والاعتقاد والتقييم والتصرف، وهذه المعايير هي ما نسميه بصفة عامة ثقافتهم. وتلقي قصيدة إملي دكسون الضوء على الخصائص المتعددة للثقافة ومنها:

١. الثقافة نتاج التدخل الإنساني فى العمليات البيولوجية للطبيعة.
٢. الثقافة تحرر وتقيد فى آن واحد، إنها تحرر لأنها تشتثمر عفوية الطبيعة بإضفاء معنى ونظام وعقلانية على هذه الطبيعة وتحميها من الفوضى، وتقيد لأنها تفرض على الطبيعة بنية ليست منها كما إنها تحد من مجال المعاني الممكنة التي أبدعها الفرد.
٣. الثقافة نتاج مجتمعات خطاب لها ظروف اجتماعية وتاريخية خاصة، وهي إلى حد كبير مجتمعات تصورية خللقتها وشكلتها اللغة.
٤. تمثل لغة أي مجتمع وإنجازاته المادية ميراثا اجتماعيا ورأس مال رمزي يعمل على إطالة أمد علاقات القوة والهيمنة، وتميز المواطنين عن الدخلاء.[١٦]

العلاقة بين اللغة والثقافة

اللغة هي الوسيلة الرئيسية التي ندير بها حياتنا الاجتماعية، وعندما تستخدم اللغة فى سياقات التواصل تتعقد الصلة بينها وبين الثقافة فى نواح كثيرة ومتشابكة. اللغة هي جزء من الثقافة، والثقافة تحدد هوية الشعوب. أي أن اللغة تعني هوية المجتمعات. اللغة هي وسيلة للتواصل بين أفراد المجتمع وإذا حرمت المجتمعات من اللغة فإنها تحرم من وسيلة التواصل والتعبير. فالمجتمعات تتواصل وتتفاهم عبر اللغة، لذلك لا يمكن أن توجد الشعوب بدون وجود اللغة.

يحسن بنا أن نقول إن الكلمات التي ينطق بها الناس تشير إلى خبرة مشتركة. وتستخدم هذه الكلمات فى شرح وقائع أو أفكار أو أحداث قابلة للنقل، لأنها تشير إلى مخزون من المعرفة بهذا العالم يشترك فبه آخرون. تعكس الكلمات أيضا مواقف كتابها ومعتقداتهم ووجهات نظرهم التي قد يشاركهم فيها آخرون أيضا. تضطلع اللغة فى الحالتين بالتعبير عن واقع ثقافي.

[١٦] المرجع السابق، *اللغة والثقافة*، ص: ٢٤-٢٥

ولكن أعضـــاء مجتمع ما أو جماعة اجتماعية ما لايكتفون بالتعبير عن خبراتهم، ولكنهم يقدمون خبراتهم للعالم حين يبعثون فيها الحياة من خلال اللغة، فهم ينقلون خبراتهم من خلال الوســـيلة التي يختارونها من أجل التواصل بينهم عبر الهاتف–على سبيل المثال– أو من خلال الحديث المباشر أو بإرسال رسالة عبر البريد العادي الإلكتروني أو عند قراءة جريدة أو تفســـير بياني. إن الطريقة التي يســـتخدم بها الناس اللغة–منطوقة كانت أو مسموعة أو مكتوبة أومرئية–تشئ معان يفهمها أعضاء الجماعة التي ينتمون إليها من خلال أسلوب المتحدث. إذن تجسد اللغة واقعا ثقافيا من خلال جميع مظاهرها اللفظية وغير اللفظية.

وفى النهاية نقول: إن اللغة نســـق من العلامات *signs* نعده ذا قيمة ثقافية لأن المتحدثين يعبرون عن هويتهم وهوية الآخرين من خلال استخدامهم لها. فهم يرون أن استخدامهم للغتهم رمز لهويتهم الاجتماعية،ومنع استخدامها رفض لهويتهم الاجتماعية وثقافتهم. وعليه يمكننا القول: إن اللغة ترمز إلى واقع ثقافي.[١٧]

في وقتنا الراهن إذا أردنا أن نبني مجتمعاً فيجب العودة إلى تاريخ وثقافة ولغة ذلك المجتمع وإلا فإن ذلك المجتمع لن ينتمي إلى تلك الثقافة وذلك التاريخ. ومن هنا تأتي أهمية اللغة في بناء المجتمعات. لا يمكن بناء اللغة والثقافة خلال يوم واحد، بل إن اللغة والثقافة هي نتيجة لتراكم آلاف السنين، فإذا أردنا بناء مجتمع ما فيجب أن نفعل ذلك انطلاقاً من لغته، وإذا لم يتم بناء المجتمعات انطلاقاً من لغتها فإنها ستتطور على بنية خاطئة ولن يكون مجتمعاً ينتمي إلى نفسه.

تعرف الثقافة بأنها جميع النتاجات المادية والمعنوية التي انتجتها المجتمعات عبر تاريخها في ســـبيل الحفاظ على ديمومة واستمرارية حياتها، واللغة جزء من هذا النتاج، لأن المجتمعات تؤسس نفسها من خلال اللغة، ويمكن القول إن اللغة هي جزء مهم من الثقافة، فالمجتمعات تعبر عن نفســـها، علاقاتها وتعليمها من خلال اللغة، وكل هذه الأمور مرتبطة بالثقافة وبدون هذه الأمور ســـتكون المجتمعات مجرد كيانات خرســـاء، ومهما كان مســـتوى ثقافتها فإنها ستبقى عاجزة عن التعبير عنها.[18]

أدوارد ســابير (١٨٨٣–١٩٣٩) وبنيامين لى هورف (١٨٩٧–١٩٤١) هما من أشــهر علماء الاجتماع الأمريكيين وتزعم فى نظريته أن بنية اللغة التي يســتعملها الفرد فى العادة تؤثر على الطريقة التي يفكربها ويتصــرف تبعا لها. وقد أســهم كل من ســابير وهورف بالكثير فى الدراســات اللغوية للغات الهندية الأمريكية، وقدّما الكثير لزيادة معرفتنا بهذه اللغات وأســهما فى تطوير نظرية علم اللغة العام. وقد أجريا أبحاثهما الخاصــة بهذه الفرضــية فى

[١٧] المرجع السابق، *اللغة والثقافة*، ص: ١٥–١٦

[18] كوباني، *المقالة فى ANF News*، شبكة العنكبوت ٢٠١٥.

نهاية حياتهما العلمية، أي فى الثلاثينيات، بعد حياة علمية حافلة، كرسها للدراسة الجادة فى مجالى علم اللغة والثقافة، ولذلك لا نستطيع أن نأخذ دراستيهما إلا بشيئ من الجديد. وليس من الواضح، من الناحية الأخرى، أي من صياغات هذه الفرضية كان مقبولا لدى سابير وهورف، لأن كليهما لم يحاول تعريف هذه الفرضية.[١٩]

وتبرز علاقة اللغة بالثقافة من حقيقة أن اللغة جزء من الثقافة، وهي أي اللغة عمومية من عموميتها، واللغة ظاهرة اجتماعية. ويجب علينا أولا، تحديد العلاقة بين اللغة والجوانب الأخرى للثقافة. وتجمع الفرضية بين مبدأين هما: النسبية اللغوية أي أن المتكلمين باللغات المختلفة لديهم إدراكات وتصورات مختلفة عن العالم، والحتمية اللغوية أي أن بناء اللغة يضع قيودا أو شروطا على تمثيلات اللغة.[٢٠] اللغة تحدد التفكير فهي ترى أن المجتمع لا يرى العالم إلا من خلال لغته، فاللغة تساعد التفكير وتساعد على نموه، [٢١]وترى أيضا أن تأثير اللغة على الفكر تأثير كامل، أي أنه ليس هناك فكر دون لغة. ولو جمعنا بين هذين الرأيين، فسنكتشف أنه لا توجد أية قيود على التباين القائم بين الناس فى أسلوب تفكيرهم، وخاصة فى المفاهيم التي يكونونها، وينتج عن ذلك أننا لو وجدنا وسيلة للتحكم فى اللغة التي يتعملها الناس، فإننا بالتالي نستطيع التحكم فى أسلوبهم فى التفكير، ولكن آرائهم مثيرة للجدل للغاية مع معظم آراء الخبراء الآخرين.[٢٢]

ويرى هورف حادثة طريفة اشتهرت فيما بعد، وهي أن أحد مثمني تأمين أخطار الحرائق لاحظ أثناء عمله أن الطريقة التي يتصرف بها الناس نحو الأشياء تتصل فى الغالب اتصالا وثيقا بالطريقة التي يسمون بها الأشياء. ومثال ذلك أن رؤية كلمة *EMPTY* أي "فارغ" على اسطوانات الغاز يشجع المارة على إلقاء أعقاب السجائر فى هذه الاسطونات دون أن يدركوا أن بقايا الغاز فى قاع اسطوانة قد تتسبب فى حدوث انفجار. فكلمة "فارغ" تدل بالإنكليزية فى واقع الأمر على وجود فراغ لاينطوي على خطر. ويصل ورف إلى نتيجة مفادها أن الناطقين باللغة–فى اللغات المختلفة–تختلف أفعالهم لأن اللغة هي التي تحدد طريقة إدراكهم للأشياء فضلا عن الطريقة التي يصنفون بها خبراتهم.

ولاحظ هورف أن الناطقين بالإنكليزية يعتقدون أن الزمن عبارة عن تسلسل خطي لأحداث يدل عليها نسق يتكون من ماض وحاضر ومستقبل (مثل: جرى ويجري وسوف يجري) أو عدد صحيح من الأيام (عشرة أيام مثلا)، بينما لاحظ أن أبناء قبائل الهوبي *Hopi* يعتقدون أن الزمن تكثيف وتواصل، وأن كثافة الزمن وعدم انقطاعه

[١٩] المرجع السابق، *علم اللغة الاجتماعي عند العرب*، ص: ١٦٢

[20] Abdul Chaer, Leonie Agustina, *Sosiolinguistik*, (Jakarta: RIneka Cipta, 2004), hal.166.

[٢١] المرجع السابق، *علم اللغة الاجتماعي عند العرب*، ص: ١٥٣

[٢٢] المرجع السابق، *علم اللغة الاجتماعي عند العرب*، ص: ١٦٣

أثناء الفعل هما الأهم فى التعبير عن الخبرة الحياة. (فعبارة *He ran* مثلا هي خبرية تشـير إلى واقع حدث، *warikni* أي أنها جملة إخبارية فى الماضـي) ومثال ذلك "مكثوا عشـرة أيام" تصـبح فى لغة الهوبى "مكثوا حتى اليوم الحادي عشر" أو "غادروا بعد اليوم العاشر"

ويصـــرف هورف على أن اللغة الإنكليزية تقيد الناطقين بها بوجه النظر النيوتونية (نســـبة إلى إســـحق نيوتون) التي ترى الزمن قابلا للتصـنيف والتعريف والتسـجيل والتحديد والتاريخ والتقطيع بحيث يمكن تحويل الواقع إلى أجزاء زمنية. حســـب هذه النظرية لايمكن النظر إلى الزمن على أنه دائري أو أنه كل متكامل. وعلى النقيض من ذلك لا ينظر أبناء الهوبي إلى الزمن فى لغتهم على أنه مســافة زمنية يمكن قياســها، بل هو علاقة بين حديثين من ناحية مدة الحدوث، أي نوع من الحدوث يشــار إليه بطريقة موضــوعية بوصــفه وبطريقة ذاتية وصــفية. ولا تضمن لغة الهوبي–فى رأي هورف–شيئا بشأن الزمن عير التعبير عما حدث فى الماضي، ومن ثم يصبح من الصعب أن يفهم طبيب إنكليزي طبيبا آخر من أبناء الهوبي بســـبب الاختلاف الكبير بين لغتيهما. وبالرغم من إمكانية نقل المعلومات من لغة إلى أخرى تبقى دائما أشـياء تسـتعصـي على النقل أو القياس وهذه الأشـياء ثقافية تتعلق ببنية لغة معينة.

تعرضـت نظرية سـابير–وهورف لجدل عنيف منذ أذاعها هورف فى عام ١٩٤٠. فعندما افترض هورف، ولوبنحو غير مباشـر، أن المصـداقية العالمية للاكتشـافات العلمية رهن باللغة التي عبرت عنها، جوبة مباشـرة بازدراء المجتمع العلمي وصده. لم يكن المناخ العلمي الذي سادت فيه الوضعية المنطقية فى ذلك الوقت يمح بمجرد الإشارة إلى أن اللغة هي التي تحدد الفكر وليس العكس. ولم يكن ليقبل بفكرة أننا سـجناء لغتنا، ولم يكن أحد ليقبل بأن أبناء الهوبي ليس بمقدورهم المســـاهمة فى الفكر العلمي الحديث لأن لغتهم لا تســـعفهم فى ذلك، أو لأنهم قد يصـــطدون بفكرة الزمن النيوتوني عندما يتعلمون الإنكليزية. ويلاجظ الباحث هنا كيف تنتهي نظرية هورف فى نسـبية اللغة بسـهولة إلى التحيز والتشـيع لجنس دون الآخر. وعلى كل حال نسـتطيع أن نقول إن الترجمة من لغة إلى أخرى ممكنة دون ريب، ولو لم يكن الأمر كذلك ما استطاع هورف نفسه الكشـف عن الطريقة التي يفكر بها أبناء قبائل الهوبي. ويكشـف لنا أن الصـلة بين بناء لغوي ووجهة نظر ثقافة عالمية هي صـلة تعسـيفية فى الواقع، ويجس أن ننظر على أنها تعسيفية.

ومن ثم لا يمكننا أن نأخذ نظرية هورف الراديكالية، التي تزعم أن اللغة تحدد طريقتنا فى التفكير على أنها لا تقبل الجدل. فهناك من خفف من حدة هذه النظرية وخرج بنظرية أقل شـيوعا ولكنها تسـتند على نتائج بحيثة

خلصت إلى وجود اختلافات ثقافية فى العلاقات الدلالية التي تستدعيها مفاهيم تبدو مشتركة فى ظاهرها. وتزعم هذه النظرية أن الطريقة التي تحول بها الخبرة إلى رموز دلالية لا تجعل هذه الخبرة متاحة إلا لفئة خاصة من الناس.

نضرب لذلك مثلا أطفال قبائل النفهو *Navajo* الذين يتحدثون لغة ترمز إلى فعل النقاط جسم مستدير مثل الكرة أو ما شابه ذلك بطريقة مختلفة–من خلال منظومة من الأفعال تختلف عما ترمز إلى فعل النقاط جسم طويل نحيف مرن مثل الحبل أو ما شابه ذلك. فإذا افترضنا أن أمامنا حبلا أزرق وحبلا أصفر وعصا وزرقاء وطلبنا من الأطفال أن يختاروا من بينها ما يتاسب الحبل الأزرق، فإن أطفال النفهو الذين لا يتحدثون غير لغة واحدة سيختارون الحبل الأصفر، لأن الأشياء ترتبط فى أذهانهم بأشكالها المادية، بينما سيختار الأطفال الناطقين بالإنكليزية– الذين لا يتكلمون غير لغة واحدة–العصا الزرقاء لأن الأشياء ترتبط فى أذهانهم بلونها رغم أن أطفال الفريقين–بطبيعة الحال–قادرون على التمييز بين الألوان والأشكال.

يعقد العلماء أن هذه التجربة تظهر جانب الضعيف فى نظرية هورف التي تزعم أن مستخدمي اللغة يميلون إلى تصنيف تجاربهم وتمييزها بطريقة مختلفة حسب المقولات الدلالية التي وصلت إليهم من خلال الشفرات الخاصة بكل لغة. بينما تبين التجربة أيضا أن كل ما ورد فى الشفرة اللغوية لا يمكن فهمه إلا من خلال السياق البراجماتي الأوسع لخبرة الناس. فطفل النفهو الذي يتعلم الإنكليزية قد يبدأ فى تصنيف التجربة فى لغة النفهو بالطريقة نفسها التي يصنف بها الطفل الإنكليزي تجربته فى لغته. وهكذا فإن المعاني الدلالية الشاملة للشفرة التي استقرت عبر الزمن داخل مجتمع خطاب معين تعد هدفا للاستخدامات المتباينة والمتغيرة دوما فى السياقات الاجتماعية. لسنا إذن سجناء المعاني الثقافية التي تطرحها لغتنا، ولكن وسعنا أن نثري هذه الماني فى تفاعلاتنا الذرائعية مع مستخدمي لغة أخرى.[٢٣]

خاتمة

وتجمع الفرضية سابير–وهورف بين مبدأين هما: النسبية اللغوية أي أن المتكلمين باللغات المختلفة لديهم إدراكات وتصورات مختلفة عن العالم، والحتمية اللغوية أي أن بناء اللغة يضع قيودا أو شروطا على تمثيلات اللغة. ولا تزعم نظرية النسبية اللغوية أن البناء اللغوي يحد من تفكير الناس وفهمهم للأشياء، ولكنها تزعم أن البناء اللغوي يؤثر فيما يفكر فيه الناس وما يفهمونه بشكل منظم. ومن ثم يمكن االقول إن نظرية سابير–وهورف قد انتهت ألى فهمين:أولا، أن هناك اعترافا فى الوقت الراهن بأن اللغة، بوصفها شفرة، تعكس هموم ثقافية وتضع

[٢٣] المرجع السابق، *اللغة والثقافة*، ص: ٢٧–٣٠.

قيودا على الطريقة التي يفكر بها الناس.ثانيا، أننا نقر-أكثر مما كان يقر به هورف فى أيامه-بأهمية السياق فى إتمام المعاني التي تنطوي عليها الشفرة اللغوية.

المراجع

ابن جني، *الخصائص*، (عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع،).

تمام حسن، *اللغة العربية معناها ومبناها*، (المغرب، جمع الحقوق محفوظة، ١٩٩٤).

العديد من المؤلفين، *الموسوعة العربية العالمية*، (السعودية العربية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع: ١٩٩٩).

علي عبد الواحد وافي، *اللغة والمجتمع*، (القاهرة: مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٣).

كلير كرامش، *اللغة والثقافة*، ترجمة أحمد الشيمي، (قطر، وزارة الثقافة والفننو والتراث، ٢٠١٠).

محمد حسن عبد العزيز، *مدخل إلى اللغة*، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٨).

هادي نهر، *علم اللغة الاجتماعي عند العرب*، (الجامعة المستنصرية على طبعه، ١٩٨٨).

Abdul Chaer, Leonie Agustina, *Sosiolinguistik*, (Jakarta: Rineka Cipta, 2004).